

## الزاوية الناصرية في ظل الدولة العلوية: تأثيرها وأدوارها المتعددة

الباحث: د. سعيد الأشعري  
أستاذ محاضر  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة  
المملكة المغربية

### الملخص:

تُعَدّ الزاوية الناصرية من أبرز الزوايا في تاريخ المغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك بفضل الأدوار المتعددة التي اضطلعت بها في مختلف مجالات المجتمع المغربي خاصة في بداية العصر العلوي. من الناحية العلمية، أسهمت الزاوية في الحفاظ على التراث العلمي والفكري من خلال التعليم الذي تقدمه للطلبة، إضافة إلى توفير المخطوطات والمراجع التي أسهمت في إثراء الخزانة المغربية. كما كانت الزاوية الناصرية بمثابة مركز علمي رائد في فترة تميزت بتراجع ملحوظ في النشاط العلمي والفكري في البلاد. لا تزال الخزانة الناصرية بتامكروت تمثل وجهة رئيسية للطلبة والباحثين من مختلف أنحاء العالم حتى يومنا هذا. في السياق الديني، قامت الزاوية بنشر تعاليم الدين الصحيح والعمل على مكافحة البدع والشعوذة، مما جعلها مركزاً بارزاً للتربية الروحية والتوجيه الديني السليم. من الناحية الاقتصادية، أدت الزاوية دوراً حيويًا في تأمين الحماية للقوافل التجارية، مما ساهم في تنشيط الحركة التجارية والاقتصادية في المنطقة. على الصعيد الاجتماعي، قدمت الزاوية مساعدات كبيرة للفقراء والمحتاجين، كما ساهمت في حل النزاعات بين الأفراد والقبائل. أما من الناحية السياسية، فقد شهدت العلاقة بين شيوخ الزاوية والمخزن في البداية نوعاً من الحياد، ثم تطورت هذه العلاقة مع مرور الوقت إلى تقارب، ليصبح شيوخ الزاوية تابعين للمخزن بعد النزاع الداخلي على مشيخة الزاوية. وبذلك، تمكنت الزاوية الناصرية من الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي في مرحلة حرجة من تاريخ المغرب بفضل هذه الأدوار التي أدتها، دون أن تسعى إلى السلطة.

**الكلمات المفتاحية:** الزاوية الناصرية، العصر العلوي، الدور الديني، الدور الاجتماعي، الدور الاقتصادي، الاستقرار الاجتماعي.

## مقدمة

تعتبر الزاوية الناصرية منارة علمية ودينية بارزة في تاريخ المغرب، وقد أدت دوراً محورياً في تشكيل المجتمع المغربي على مر العصور. تأسست هذه الزاوية في القرن السادس عشر الميلادي، وسرعان ما أصبحت مركزاً يجذب العلماء والطلبة من مختلف أنحاء المغرب. امتدت نفوذ الزاوية الناصرية لتشمل جوانب متعددة من الحياة المغربية، حيث قامت بدور محوري في نشر العلم والمعرفة، وتعزيز التماسك الاجتماعي، والحفاظ على التراث الثقافي والديني. سنستعرض في هذه المقالة الأدوار المتعددة التي قامت بها الزاوية الناصرية، مع التركيز على دورها الديني، والاجتماعي، والاقتصادي، والعلمي، والتربوي.

## تأسيس الزاوية:

تأسست زاوية تامكروت<sup>(1)</sup> بواحة فزواطة في جنوب الأطلس الكبير على يد الشيخ أبو حفص عمرو بن أحمد الأنصاري في سنة (983هـ/1575م)، بهدف نشر مبادئ الطريقة الشاذلية وتعليم الناس أمور دينهم. ويروي محمد بن عبد السلام الناصري في كتابه *(المزاييا فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا)* أن العلوم الدينية استطاعت النجاة خلال الفوضى السياسية التي اجتاحت القرن السابع عشر الميلادي بفضل ثلاث زوايا رئيسية: الزاوية الناصرية، والزاوية الفاسية، والزاوية الدلائية. في هذا السياق، برزت الزاوية الناصرية كفاعل ديني واجتماعي، خصوصاً خلال بداية تأسيس الدولة العلوية، حيث اضطلعت بأدوار محورية في نشر التعليم الديني، وتثبيت القيم الروحية، والمساهمة في استقرار المجتمع خلال الفترات المضطربة. يقول عبد العزيز الخمليشي في هذا الصدد: «في وسط إحدى الواحات الخصبة، المحاذية لضفاف وادي درعة، وهي واحة فزواطة، الواقعة جنوب الأطلس الكبير، أسس أحد الأتقياء، وهو أبو حفص عمر الأنصاري، في العام (983هـ/1575م)، زاوية تمجروت، بهدف نشر مبادئ الطريقة الشاذلية وتعليم الناس أمور دينهم»<sup>(2)</sup>.

تولى من بعد وفاة الشيخ المؤسس مشيخة الزاوية عبد الله بن الحسين الرقي الأنصاري الملقب بالقباب، الذي تنامت في عهده أحباس الزوايا وبدأ صيتها ينتشر محليا ووطنيا، ذلك أن حفيد أبو حفص وأحد تلاميذه المسمى أحمد ابن إبراهيم الأنصاري<sup>(3)</sup> اشترى العديد من الأملاك وجعلها وقفا للزاوية. بعد

(1). تسمى أيضا تمجروت وتمكثروت وتامغروت تقع جنوب الأطلس الكبير وسط ما يزيد عن 300 قصر من قصور واد درعة بتمكثروت، وهو موقع كان يشغل ملتقى القوافل التجارية المتجهة من تافيلالت إلى سوس. أنظر: الناصري، محمد بن عبد السلام بن عبد الله. *المزاييا فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا*، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، 2003، ص 31-32؛ أنظر أيضا: الخمليشي، عبد العزيز. *زاوية تمجروت (1642-1914)*، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، تنسيق نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 1997، ص 121؛ ضريف، محمد. *مؤسسة الزوايا بالمغرب*، مرجع سابق، ص 53.

(2). الخمليشي، عبد العزيز. *زاوية تمجروت (1642-1914)*، مرجع سابق، ص 121.

(3). أحمد ابن إبراهيم الأنصاري هو حفيد مؤسس زاوية تامكروت أبو حفص عمر الأنصاري، من ابنته السيدة ميمونة.

وفاة الشيخ الثاني للزاوية خلفه أحمد ابن إبراهيم ما بين سنتي (1635م و1642م)، لكن مشيخته انتهت باغتياله من طرف أحد أعيان قصر أكني يحيى بن عمر، ونشير بأن الروايات التاريخية اختلفت في سبب مقتله.

ويبدو أن الزاوية شهدت فترة فراغ في المشيخة بعد واقعة الاغتيال إلى أن آل أمرها إلى محمد بن ناصر الدرعي وهو من تلاميذ الشيوخ السابقين. يقول محمد ضريف في هذا السياق: «انتقلت إدارة تامغروت بعده-يقصد أحمد بن إبراهيم- إلى أحد تلاميذه المقربين: سيدي محمد بن ناصر المولود سنة (1603م) والمتوفى سنة (1674م)، والذي ينتمي إلى أصول عربية ترجع إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ودخلت عائلته إلى المغرب خلال زحف بني معقل»<sup>(1)</sup>. وهكذا تحولت زاوية تامكروت من زاوية أنصارية إلى زاوية ناصرية وهو الاسم الذي اشتهرت به إلى يومنا هذا. ونجحت في أن تكون «أقوى وأهم زاوية في الجنوب، بل وتوسعت في معظم مناطق المغرب ومدنه»<sup>(2)</sup>، كما وصل إشعاع الزاوية إلى خارج البلاد، مؤسسة «ما يناهز ثلاثمائة فرع»<sup>(3)</sup>. وأدت أدوارا ووظائف عديدة دينية، وعلمية، واقتصادية، واجتماعية.

### الزاوية الناصرية في عهد محمد بن ناصر

تجدر الإشارة إلى أن الشيخ محمد بن ناصر<sup>(4)</sup> عاصر البدايات الأولى لتأسيس الدولة العلوية، وتزامنت مشيخته مع الملوك الثلاث الأوائل المولى محمد بن الشريف (ت 1664)، والمولى الرشيد (ت 1672)، والمولى إسماعيل (ت 1727). يعتبر هذا الشيخ المؤسس الفعلي والروحي للطريقة الناصرية، التي أصبحت أهم طريقة في المغرب. وقبل أن تصبح مشيختها وراثية وحكرا على السلالة الناصرية، كان الشيوخ في بداية تأسيس الزاوية يقومون باختيار من يأنسون فيه الكفاءة العلمية والقدرة على استقطاب الأتباع والمريدين، كما يشترط في شيخ الزاوية أن تكون له القدرة على نشر ممارسات وأفكار الزاوية في جميع أنحاء المغرب، والقدرة على الرفع من ممتلكاتها المادية والمعنوية.

(1) - ضريف، محمد. مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1992، ص 53.

(2) - الخليلي، عبد العزيز. جوانب من الزاوية الناصرية بالرباط في القرن 19 وبداية القرن 20 (1855-1926)، دراسات تاريخية مهداة للفقيد جرمان عياش، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1994، ص 181-182.

(3) - MAECCEL, BODIN. La zaouïa de Tamegrout, les archives berbères, Paris, 1918, fascicul 2, p 294.

(4) - قيل في حق هذا الشيخ «لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر لكثرة الفتن فيه، وهم سيدي محمد بن ناصر من درعة، وسيدي محمد بن أبي بكر الدلائي في الدلاء، وسيدي عبد القادر الفاسي»؛ كما جاء على لسان الأسطوغرافيين في ظل الفوضى السياسية للقرن السابع عشر الميلادي أن العلوم الدينية نجت من الغرق في الفوضى، لأنها وجدت ملجأ في ثلاث زوايا: زاوية عبد القادر الفاسي، وزاوية محمد بن ناصر، وزاوية الدلاء. أنظر: الناصري، أحمد بن خالد. طلعة المشتري في النسب الجعفري، المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم بسلام، مطبعة سيرار، الدار البيضاء، 1986، 133/1؛ أنظر أيضا: الناصري، محمد بن عبد السلام بن عبد الله. المزايأ فيما أحدث من البدع بألم الزوايا، مرجع سابق، ص 33.

برز التصوف في هذا الزاوية الموجودة في تخوم الصحراء الكبرى بروزاً محاييداً شيئاً ما عن باقي الزوايا المغربية، حيث يقول مؤلف كتاب (المزايا في أحدث من البدع في أم الزوايا): «هذا راجع إلى أن التصوف في هذه الزاوية يقدمه علماء لهم اطلاع واسع بالشريعة أصلاً وفرعاً»<sup>(1)</sup>. ويضيف قائلاً إن تصوف الزاوية الناصرية مبني على مقاييس محايدة لا يستند فيها الشيخ إلى رواية معلومة ليلقونها لطلبهم أو من يريد الدخول في سلك طريقتهم، من بينها عدم التقييد بزي خاص، والزاوية الناصرية تعتبر هذا الأمر بدعة، فيما تعتبر الزاوية الدرقاوية فرضاً من فرائض طريقتها.

يتضح من خلال المصادر التي تناولت الحديث عن الزاوية الناصرية أن طريقتها تتميز بالاعتدال والالتصاق الشديد بتعاليم الشريعة الإسلامية والمذهب المالكي، إذ أن مؤسسها الروحي أحمد بن ناصر كان عالماً ومتصوفاً في نفس الوقت، وقد عرف الناصريون بمعارضتهم الشديدة للكثير من الممارسات والطقوس الصوفية السائدة كالسماع والرقص في حلقات الذكر، كما حاربوا العديد من البدع التي يقدم عليها الناس كتقديم الذبائح للأولياء والأضرحة، لكن رغم تمسك الشيخ أحمد بن ناصر بتعاليم الدين الحنيف، وخوفه من السقوط في البدعة، وتجنبه كل الممارسات التي ليس لها أساس في القرآن أو السنة؛ فإنه لم يمنع زيارة الأولياء والأضرحة والتبرك بهم وما يعزز هذا التوجه هو ما جاء على لسانه في رحلته للحج: «ودخلنا سجلماسة وأقمنا بساحة سوق أبي عام أربعة أيام... وزرنا من بها من فضلاء الموتى كسادتنا الشرفاء... جريا على عادة أسلافنا في ذلك»<sup>(2)</sup>.

لقد ساعد توجه الزاوية السني المعتدل من أن تجلب إليها عدد كبير من المريدين والأتباع من الطلبة والعلماء، وبذلك تمكنت من تأسيس فروع لها في جميع أنحاء المغرب، وخارجه خاصة في إفريقيا جنوب الصحراء. واكتسبت الطريقة الناصرية أتباعاً في صفوف المخزن كذلك، خاصة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر عندما انتسب إليها السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله.

والظاهر أن تواجد الزاوية الناصرية في أقصى الجنوب الشرقي مكنها من أداء دور مهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالمنطقة. فبفضل موقعها الاستراتيجي أصبحت تامكروت مركزاً تجارياً حيوياً، كما أضحت تشكل نقطة التقاء بين مجموعة من العلماء من مختلف أنحاء المغرب وخارجه خاصة خلال موسم سيد البخاري. بالإضافة إلى اضطلاعها بوظيفة استتباب الأمن وحل النزاعات القبلية، وتوفير الحماية والأمن للقوافل التجارية العابرة لدرعة من الصحراء إلى الشمال أو العكس.

(1). الناصري، محمد بن عبد السلام بن عبد الله. المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا، مرجع سابق، ص 35، بتصرف.

(2). الناصري، محمد بن عبد السلام. الرحلة الصغرى، مخطوط رقم 121، الخزنة الملكية، الرباط، ص 6-7.

## أدوار الزاوية الناصرية

أدت الزاوية الناصرية، شأنها شأن بقية الزوايا في المغرب، أدوارًا ووظائف متنوعة أسهمت في تنمية الفرد والمجتمع وتحقيق الاستقرار المنشود منذ تأسيسها في القرن السادس عشر الميلادي وحتى يومنا هذا. وقد تميزت بتقديم خدمات مادية ومعنوية شملت مختلف جوانب الحياة العامة. برز دور الزاوية الناصرية في نشر الدين وتعزيز قيمه في أوساط المجتمع، كما ساهمت بشكل كبير في تعليم العلوم وحفظها للأجيال القادمة. إلى جانب ذلك، أدت الزاوية وظائف اجتماعية هامة، من بينها تقديم المأكل والمأوى للفقراء والمحتاجين، والمساهمة في فض المنازعات، سواء كانت بين الأفراد، أو بين القبائل، أو بين القبائل والمخزن.

تتجلى أهمية هذه الأدوار والوظائف في السمعة الطيبة التي حظيت بها الزاوية الناصرية، مما يجعلها نموذجًا بارزًا للزوايا التي تركت أثرًا عميقًا في النسيج الاجتماعي والثقافي للمغرب. وسيتم في هذا السياق التفصيل في أبرز هذه الأدوار التي ميزتها منذ التأسيس.

## الدور الديني

مما لا شك فيه أن الوظيفة الرئيسية للزوايا بصفة عامة وأساس شرعيتها هو نشر الدين والحفاظ عليه، ولقد اهتم بهذه الوظيفة الصلحاء وشيوخ الزوايا ومن اتبعهم من المريدين. وفي هذا الصدد يسجل التاريخ الدور البارز الذي أدته الزاوية الناصرية في نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وتثبيتها داخل المجتمع وفي كل المناطق التي انتشرت فيها فروع الزاوية المذكورة. كما أنها كانت شديدة التشبث بالقرآن والسنة ومحاربة البدع والضلالات التي عرفت بها زوايا أخرى في ذلك العهد. ويدل على ذلك ما ورد عن محمد ضريف: «إن قلق الابتعاد عن مبادئ السنة ظل يساور بن ناصر حتى وفاته، لقد حج مرتين مما سمح له بالدخول في علاقات مع أولياء طرابلس والقاهرة ومكة والمدينة»<sup>(1)</sup>. فلقد كان الشغل الشاغل لمحمد بن ناصر الالتزام بتعاليم الشرع دون زيادة أو نقصان وعدم الابتداع في الدين. ولذلك كانت طريقته التي تمتح من الشاذلية والجزولية والزروقية<sup>(2)</sup> بسيطة ملتزمة بالورد والذكر والهيللة، فأما الورد عندهم فهو ثلاثة أذكار، أولها: أستغفر الله مائة مرة، اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما مائة مرة، لا إله إلا الله ألف مرة، وفي تمام المائة تزيد محمد رسول الله، ووقته من صلاة

(1)- ضريف، محمد. مؤسسة الزوايا بالمغرب، مرجع سابق، ص 54.

(2)- نسبة إلى أبي العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي البرنسي المعروف بزروق توفي سنة 899هـ بمصراته بطرابلس بليبيا عن عمر يناهز 54 سنة، أنظر: المكناسي، أحمد ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، 128/1-131.

الصباح إلى طلوع الفجر الذي بعده. ويضيفون إليها ألفا بين المغرب والعشاء، ويختمون بدلائل الخيرات كل جمعة ثلاث مرات، ثم يبدؤونه يوم الثلاثاء، ويختمونه يوم الخميس. أما القرآن الكريم فيختمونه كل 12 يوما، يقرؤون كل يوم خمسة أحزاب وما فضل عن ذلك من الأوقات يذكرون فيه الهيلة، وهي في معناها تمحيص مضمون التوحيد ونفي مضمونه عما سواه، ولقد ركز محمد بن ناصر في أذكاره على الهيلة، والاستغفار، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. كان الشيخ يدعو أتباعه إلى الابتعاد عن البدع، والبحث عن الرخص، بدون تشدد. وبذلك وسمها البعض بالمرونة، ومراعاة أحوال المريدين، ذلك أن الشيخ كان يختار من الورد ما يناسب الوقت وأهله. وإلى جانب هذا، فقد راعى أحوال المريدين الذين قسم وردهم إلى ثلاثة أنواع :

- ✓ ورد من يستطيعون القراءة، ويقتصرون على ما ذكر .
  - ✓ ورد العوام الذين يلتزمون أيضا بالاستغفار والصلاة على النبي بالقدر المذكور، لكنهم يضطرون إلى إضافة سبعة آلاف من "لا إله إلا الله".
  - ✓ ورد النساء، ويقتصرن على مائة لكل من الاستغفار والصلاة على النبي ولا إله إلا الله. وعلى الرغم من ذلك، فإن الشيخ قد علق الأمر على استطاعة المريد وعزمه، فقال: "وليس ذلك العدد ما يفعله المريد، بل كل حسب طاقته وتوفيق ربه".
- جاء في رسالة كتبها الشيخ محمد بن ناصر كرد لبعض طلبة تلمسان الذين التمسوا الدخول في طريقته «...فإن رغبتم الدخول في السلسلة فصحبوا التوبة بشروطها. وعليكم بتقوى الله والتوكل عليه في جميع الأمور، والتأهب ليوم النشور، والتزود لسكنى القبور، وإذا فرغتم من الأذكار المأثورة بعد صلاة الصبح فقولوا: استغفر الله مائة مرة، واللهم صلى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كذلك، ولا إله إلا الله ألف مرة...»<sup>(1)</sup>. إذن، فالطريقة الناصرية بسيطة بتعاليمها، مرنة بأورادها. ذلك أنها لم تكن تلح على ضرورة الشيخ، كما هو شأن الطريقة التيجانية خصوصا والطريقة الشاذلية عموما. ولم تعتبر السماع بدعة، ولم تلزم مريديها بمنازل معينة، أو حمل شارات خاصة. هذا وشهدت الطريقة الناصرية، مع مرور الزمن، إضافات في الأوراد مثل تلاوة بعض سور القرآن الكريم، ودلائل الخيرات، وبعض منظومات الشيخ.

(1). الناصري، محمد بن عبد السلام بن عبد الله. المزايا فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا، مرجع سابق، ص 35.



## الدور الاجتماعي للزاوية الناصرية

**إطعام الطعام:** تعد وظيفة الإطعام والاحتضان الاجتماعي للفقراء، والمحتاجين، وعابري السبيل من أبرز المهام التي تميزت بها الزاوية الناصرية، خاصة خلال فترات الأزمات التي شهدتها المنطقة، سواء بسبب الاضطرابات الاجتماعية أو الهزات السياسية، أو موجات القحط والجفاف التي كانت تجتاحها بين الحين والآخر. واعتُبرت هذه الوظيفة لدى بعض شيوخ الزاوية جزءاً لا يتجزأ من إقامة الدين وممارسته. استطاعت الزاوية الناصرية القيام بهذا الدور بفضل الأملاك والأحباس التي كانت تمتلكها، والتي ازدادت بشكل ملحوظ في عهد الشيخ محمد بن ناصر، مما أتاح لها توفير الطعام لأعداد كبيرة من الوافدين. كما أن الإقبال الكبير للزوار على الزاوية، وما كانوا يقدمونه من هدايا وعطايا، عزز مواردها وساهم في دعم قدرتها على أداء هذه الوظيفة الإنسانية والاجتماعية بكفاءة.

وفيما يتعلق بحجم الممتلكات التي كانت تمتلكها الزاوية الناصرية يتبين من خلال «رسالة وجهها الشيخ محمد بن ناصر إلى أحد مقدميه المسمى محمد الحبيب يأمره فيها بأن يستقدم من مراعي الضباعية نحو مائة شاة وثلاثة عشر ثورا مما يصلح للذبح»<sup>(1)</sup>، أن الأملاك التي كانت تتوفر عليها الزاوية آنذاك كثيرة تتعدى الحصر. وهذا ما أكده أحمد عمالك بقوله: «كانت زاوية تامكروت تملك أراضي شاسعة في تربية المواشي، كما هو الشأن في منخفض إريكي والضباعية وغيرهما. كانت تلك الأراضي أكثر نماء في مجال الرعي»<sup>(2)</sup>، كما كانت للزاوية موارد أخرى تأتيها عن طريق الهبات المالية والمكافآت، وعن طريق تحبيس ووقف وصدقات يمنحها أتباع الزاوية والمتعاطفين معها.

بناء على هذه المعطيات وغيرها، يتضح أن الزاوية الناصرية كانت تتوفر على ممتلكات وأحباس كثيرة في مختلف مناطق المغرب، وهو ما سيمكن الزاوية من الاضطلاع بوظيفة الإطعام والإيواء والتميز بهما. أورد صاحب (الدرر المرصعة) أن الشيخ محمد بن ناصر «كان كثير الإطعام لكل من يرد عليه ولو كانوا ألوفا... وكان يكسو المحتاجين من المساكين واليتامى»<sup>(3)</sup>. بمعنى أن الزاوية كانت محج لعدد لا يحصى من الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل الذين يجدون فيها المأوى الاجتماعي خاصة في فترات الجفاف. وهذا ما تبينه الرسالة التي وجهها الشيخ محمد بن ناصر إلى أحد مقدميه حيث قال: «ولا يثقل عليكم في السفر إلينا كثرة من يريد مرافقتك في السفر شفقة علينا من كثرة المؤونة والزحام، فإن الدار دار الله ثم

(1) - عمالك، أحمد. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي، 1052-1325 هـ، 1642-1907 م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2006، 397/2، بتصرف.

(2) - نفسه، 368/2.

(3) - الدرعي، محمد المكي بن موسى بن ناصر، الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة، مخطوط، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ص 334.

دارك ودار المسلمين قاطبة، لذلك أقامها الله تبارك وتعالى، ولا يؤذيها كثرة الأضياف بفضل الله تعالى، ولو كانوا آلافا مؤلفة وأقاموا أزمنا متطاولة، بل إنما نشرف بذلك ونزداد حظوة، ولا ينقص ذلك مما أسبغ الله علينا من فضله فتिला...»<sup>(1)</sup>. وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه بأن الزاوية الناصرية كانت ميسورة الحال وكثيرة الأملاك، فنجحت في توفير الشراب والطعام لأعداد لا تحصى من الوافدين عليها في كل حين.

إن تعبير الشيخ على أن الضيوف وإن كانت آلافا مؤلفة فلا يضر الزاوية شيء، يؤكد أن هناك نوعا من البعد الكرماطي للشيخ، دون أن ننكر حجم الممتلكات التي كانت لدى الزاوية، فكثرة العرض على الزاوية وإن قل الطعام في فترات القحط، فإن الكرامة والمعجزة التي يحظى بها الشيخ تسهم بشكل كبير في تزايد الطعام خاصة في المواسم التي تقام بالزاوية، أو لنقول بأن البركة تحصل فيما يحضرونه من طعام فيكفي الجميع على كثرتهم.

ورغم كل ما قيل عن غنى الزاوية وإطعامها للفقراء والمحتاجين، فإن الشيخ محمد بن ناصر اتبع سبيل المتصوفة والزهاد، إذ «كان ابن ناصر يتقوت بقليل من طعام الشعير ودخل التمر... ويلبس خشن الثياب المرقعة زهدا منه لا فقرا، بل رياضة وصبرا، مع قدرته على التكسب، وكان يفتش الليف وهو قادر على فراش القطيف...»<sup>(2)</sup>. وهذا ما ورد في كتاب (جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي) بأن الشيخ كان زاهدا في حياته رغم ما عرف عن الزاوية من غنى بفضلها: «كان سيدنا ابن ناصر يرقد على الليف فافترشته حصيرا من السوق، وقال: فدخلت عليه فإذا بالحصير جعل عليه كتبه.. في مجلس درسه، فقال لي: هذا الحصير يليق أن تكون عليه هذه الكتب ليعظم أجرك على ذلك إن شاء الله. وأما الليف الذي علمت أني أفترشه فإني تبعت فيه طريق الصالحين اقتداء بهم...»<sup>(3)</sup>. بالإضافة إلى قيمة الزهد التي نستشفها من هذا الحديث يظهر أن الشيخ محمد بن ناصر كان يعطي أهمية كبيرة للعلم ويؤثر كتبه على نفسه. وهذا ما سنتطرق إليه في معرض حديثنا عن الدور العلمي للزاوية الناصرية.

وعليه، يمكن القول بأن الزاوية الناصرية جعلت من وظيفة الإطعام الوظيفة الأساس التي تضمن لها قاعدة عريضة من المريدين، فذاع صيتها في الوسط الدرعي بصفة خاصة والمغربي عموما، مما أكسبها سلطة رمزية داخل المجتمع، أهلتها لتضطلع بأدوار أخرى كالتعليم فكانت محج تشد إليه الركبان من

(1) - الناصري، أحمد بن خالد. طلعة المشتري في النسب الجعفري، مرجع سابق، 178/1.

(2) - عمالك، أحمد. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي 1642-1907م، مرجع سابق، 395/2.

(3) - نفسه، 396-395/2.



شتى أنحاء المغرب، لطلب العلم وأخذ الورد الناصري، هذا بالإضافة إلى دور الوساطة والتحكيم<sup>(1)</sup> الذي لعبته الزاوية الناصرية منذ تأسيسها إلى أواخر القرن العشرين.

**الوساطة والتحكيم:** قُدر للزاوية الناصرية أن تنشأ في مرحلة حرجة من تاريخ المغرب عرفت بالاضطراب وكثرة النزاعات، وهي فترة فتور السعديين وبداية ظهور الشرفاء العلويين. ذلك أن بلاد درعة عرفت كغيرها من المناطق انقساماً بين القبائل نفسها، بين ناصر للمخزن العلوي، ومتذبذب بين سلطة الزاوية السملالية في وادي درعة، وبين فئة أخرى ترى في هذا الصراع الدموي فرصة سانحة لخدمة مصالحها الخاصة، وبعد أن أصبح الأمر للمولى محمد بن الشريف العلوي، وبعده المولى الرشيد، ثم المولى إسماعيل بن الشريف، دانت البلاد باعتراف رسمي للدولة الجديدة التي يتزعمها الأشراف العلويون. في غضون ذلك، لم يستطع المخزن العلوي استتباب الأمن داخل واحات درعة لذلك أصبح تدخل الزاوية ضرورياً. يقول ضريف في هذا السياق: «إلا أن الشيوخ الأوائل للزاوية استطاعوا بفضل ما كانوا يعرفون به من صلاح وفضيلة أن يفرضوا نفوذهم على هاته القبائل المتناحرة وبسرعة فائقة أضحى شيوخ تامكروت يقومون بدور الوساطة والتحكيم في الحروب غير المنقطعة للقبائل»<sup>(2)</sup>.

لقد كان غياب المخزن في هذه المنطقة فرصة سانحة للزاوية الناصرية لتبين حسن نيتها تجاه الدولة، ذلك أنها وجدت نفسها الأمر الناهي في درعة، واعتمد عليها في إصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة. «فقد مكنت سمات المرباط ووضعه الاعتباري من جعله وسيطاً مقبولا وحكما ترتضي لوساطته كل الأطراف، بل كان عامل وفاق وفصل في كل ما كان ينشأ من نزاعات أو خلافات قبلية أو سياسية»<sup>(3)</sup>. ومرد ذلك إلى أن الزاوية لا ترتبط بأي قبيلة أو مجموعة بعينها بل هي الملجأ للجميع في فترات النزاع، وهو ما يجعل القبائل تلجأ إلى شيوخ الزاوية خاصة إذا كان الشيخ صالحاً وعادلاً حيال الجميع، كما أن ابتعاد شيخ الزاوية عن النزاعات الانقسامية يجعله ضامناً لاستقرار مجتمع مهدد بالانفجار في أي لحظة من جراء النزعات القبلية، أضف إلى ذلك أنه يمثل صلة وصل بين القبائل والجماعات، «وفي السياق نفسه، فالأولياء هم الذين يضمنون الاستقرار داخل بنية غير مستقرة ويمتصون مخزون اللامساواة الكامن لدى فئات العوام»<sup>(4)</sup>.

(1) - كانت الزوايا في البداية عبارة عن رباطات دينية تعيل وتكرم من يقصدها، ثم تطورت لاحقاً لأداء مهام الوساطة والتحكيم، بسبب ما تتوفر عليه من أسس رمزية تتمثل في الشرف والعلم والصلاح والكرامة والبركة، ومن مؤديات هذا التطور التوسط أساساً بين القبائل والسلطة المخزنية. أنظر: العطري، عبد الرحيم، صناعة النخبة بالمغرب، منشورات وجهة نظر، الرباط، ط 2، 2007، ص 34.

(2) - ضريف، محمد. مؤسسة السلطان الشريف، محاولة في التركيب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1988، ص 72.

(3) - المازوني، محمد وظائف الزاوية المغربية مدخل تاريخي، مجلة فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2008، ص 63.

(4) - كلنير ارنست، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، الأنثروبولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1998، ص 59.

يرى محمد المازوني أن «وظيفة التحكيم تقوم في الأصل على مبدأ المسالمة، الذي ميز نشاط شيخ الزاوية وقناعة المتنازعين في الاعتراف له بهذه الصفة، وهي الصفة التي منحته قدرا كبيرا من الجرأة التي رأى فيها الكثير نوع من المكاشفة في أمور الدنيا»<sup>(1)</sup>، وهو ما يزي في الغالب رأيه ويجعل كل الأطراف تقبل وترضى بأحكامه؛ وهي في منظور أصحابها كرامات ظاهرة تسهل حل ما استعصى حله بطرق سلمية وبحكمة ربانية، وهو ما يمثل عنوان بركة الوالي/الشيخ الخفية ومفتاح توفيقه وسر نجاحه في التوسط والتحكيم في الخصومات والنزاعات.

وبالنسبة للزاوية الناصرية، فقد تمكنت بفضل تصوف شيوخها وعلمهم من أن يتبوؤوا مكانة مهمة لدى الجميع، حيث صار الكل ينصاع لأوامرهم ويقدر تدخلاتهم، ويقف عند حدود ما رسموه من تعاليم، سواء في الخصومات اليومية التي تحدث بين الأفراد، أو النزاعات الواسعة التي تندلع بين الجماعات أو بين القبائل، «فكانوا يحولون دون تبادل العنف أو يحدون من انتشاره على الأقل»<sup>(2)</sup>. لم تكتف الزاوية الناصرية بدور المراقب السلبي للأحداث، بل كانت فاعلة بشكل مباشر في استعادة الأمن. فقد لعب شيوخها دوراً محورياً في تهدئة النفوس وإخماد الفتن، وذلك من خلال إرسال الرسائل والوفود إلى القبائل المتناحرة، وحثهم على العودة إلى رشدهم والالتزام بالقيم الإسلامية. وقد أثبتت الزاوية، بهذه الطريقة، أنها أكثر من مجرد مؤسسة دينية، بل هي قوة فعالة في حفظ الأمن والاستقرار.

ومن هذا المنطلق، توسط الشيخ محمد بن ناصر لدى بعض قبائل الروحا القاطنين بجوار سيدي أحمد بن علي الحاجي<sup>(3)</sup>، بخمس ترناتة؛ لأنهم كانوا يقطعون الطريق وينهبون أمتعة الناس. فوجه إليهم رسالة شديدة اللهجة، كلها تهديد ووعد حتى عد أفعالهم محاربة لله ورسوله والسعي في الأرض فسادا. ومما جاء فيها: «إلى من ابتلينا بمعاشرتهم... فتنأهوا عن ذلك وردوا ما نهبتهم عن آخره ... وابشروا بالذلة والقلّة»<sup>(4)</sup>، وتوسط الشيخ محمد بن ناصر كذلك لدى قبائل مزكيطة التي كانت تعيش وضعا مضطربا بفعل انقسام الرأي الناتج عن الصراعات التي دارت بين السملاليين والعلويين في وادي درعة، الأمر الذي أدى إلى تأزم الأوضاع وهو ما دعا الشيخ محمد بن ناصر إلى التدخل فأرسل أخاه الحسين بن ناصر إليهم. وحمله برسالة ينتدب أعيانهم فيها إلى إصلاح ذات بينهم، ومما جاء فيها «فيا للراغبين في الأجر، ويا مبتغين الخير للمسلمين، أعينونا على إصلاح بينكم. فمن أعاننا على إطفاء الشر ودحر الشيطان فهو منا،

(1) - المازوني، محمد وظائف الزاوية المغربية مدخل تاريخي، مرجع سابق، ص 63.

(2) - عمالك، أحمد. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي 1642-1907م، مرجع سابق، ص 400/2.

(3) - القطب الربان سيدي أحمد بن علي الحاجي الدرعي دفين قصر أولا الحاج بواحة ترناتة، الملقب بجبار المكسور دفين دوار أولاد الحاج بزاكورة.

(4) - عمالك، أحمد. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي 1642-1907م، مرجع سابق، ص 373/2.

وأجره على الله، وبشروه بالنصر والعزة، ومن أبي وبغى فتنة، رد الله كيده في نحره، وبشره بالذلة والقلّة»<sup>(1)</sup>. ورغم أن غاية التحكيم والوساطة هي إعادة الأمن وفسح لمجال أمام الناس لإنجاز مختلف أشغالهم والتواصل فيما بينهم، فإنه يكتسي صبغة الإلزام المعنوي، كما يفهم من قول الشيخ مخاطبا الفئة الظالمة «وإن أبيتم فلا تقوم لكم قائمة»<sup>(2)</sup>؛ أي أنه سيتخلى عنهم، الأمر الذي يحرمهم من مساندته المعنوية.

تعتبر وظيفة الوساطة والتحكيم أكثر الوظائف فاعلية بالنسبة للزاوية؛ لأنها تسعى إلى إعادة الأمن واستمرار الحياة اليومية بشكل طبيعي وتحقيق الطمأنينة. هذا بالإضافة إلى أثرها السياسي ودورها الجلي في الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي وكذا المكاسب المترتبة عن هذه الوظيفة لفائدة الزاوية.

### الدور الاقتصادي

يتمثل الدور الاقتصادي بالنسبة للزاوية الناصرية في مختلف الوظائف التي اشتهرت بها من قبيل تأمين الأسواق والطرق وحماية القوافل من النهب والسرقة. ومما ساعدها على ذلك تواجدها في ملتقى القوافل التجارية المتجهة من سوس إلى تافيلالت أو العكس هذا بالإضافة إلى هيبة وسلطة شيخ الزاوية على المجال الترابي الذي تقع فيه زاويته وعلى مختلف الفروع. يتحدث الخمليشي عن هذا الدور قائلا: «أصبحت الزاوية، بفعل نفوذها الروحي، تقوم بدور تأمين الحماية لأصحاب القوافل من هجوم قبائل الرحل المحيطة بمنطقة وادي درعة، خصوصا منها قبائل ايت عطا البربرية التي كان من جملة مصادر عيشها شن الغارات على القوافل التجارية، وأحيانا على السكان المستقرين في الواحات»<sup>(3)</sup>.

في ظل غياب سلطة مركزية قوية في تلك الفترة، أدت الزاوية الناصرية دوراً حيوياً في استقرار المنطقة اقتصادياً. فقد استطاعت، بفضل ثروتها ونفوذها، أن توفر الأمن والاستقرار لسكان المنطقة، وأن تخفف من حدة الصراعات القبلية. كما ساهمت في تنظيم التجارة والقوافل التجارية، مما عزز الروابط الاقتصادية بين المنطقة والمناطق المجاورة.

### الدور العلمي والتربوي

اضطلعت الزاوية الناصرية، منذ ظهورها، بدور بالغ الأهمية في حقل التربية والتعليم، فإلى جانب تربية المريدين، عمدت الزاوية إلى استقطاب العلماء في مختلف العلوم، حيث تصدر محمد ابن ناصر<sup>(4)</sup>،

(1) - عمالك، أحمد. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي 1642-1907م، مرجع سابق، ص 411/2.

(2) - نفسه، ص 414.

(3) - الخمليشي، عبد العزيز. زاوية تمجروت (1642-1914)، مرجع سابق، ص 122.

(4) - كان رحمه الله مشاركا في فنون من العلم كالفقه، والعربية، والكلام، والتفسير، والحديث، والتصوف، عابدا، ناسكا، ورعا، زهدا، عارفا، قائما بالطريقة، شاربا من عين الحقيقة، وكان مع إكبابه على علوم القوم، وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بالعلم الظاهر تدريسا وتأليفا وتقييدا وضبطا،

مهمة التعليم منذ تلقيه دعوة من شيوخ الزاوية واستقراره بها بعد أن تلقى ما يكفي من العلوم في زاوية أبيه الواقعة بأغلان. وبذلك أصبحت منارة العلم في فترة عرفت بالاضطراب السياسي وتوالي الأوبئة والمجاعات على بلاد المغرب، فقصدها طلبة العلم من مختلف البقاع، من أجل التلقي والأخذ على أيدي علمائها.

طبعت الحركة العلمية بتامكروت خصائص عامة في ذلك العهد، ذلك أنه كان يغلب عليها ثلاثة جوانب كبرى في الدراسات، تجلت في العلوم الدينية واللغوية والأدبية. فكان لها بالغ الأثر في ترسيخ التعاليم الإسلامية وتعميق اللغة العربية، في البادية المغربية<sup>(1)</sup>. ولقد اشتهرت الزاوية بدراساتها لمواد متعددة منها: تفسير القرآن، والحديث، والفقه، والأصول، واللغة<sup>(2)</sup>. كما درست المدرسة الناصرية أشهر الكتب لطلبها كمختصر الخليل، وأحياء علوم الدين للغزالي، وصحيح البخاري، والرسالة، وجمع الجوامع للسيوطي، والشفاء للقاضي عياض وغيرها من أمهات الكتب<sup>(3)</sup>. أما عن طريقة المعلمين في التدريس فقد اتسمت بالبساطة والتحفيز مما جعل الطلبة يقدمون على متابعة الدراسة دون ملل أو كلل. ونتيجة لذلك استطاعت هذه الزاوية أن تتصدر المشهد التربوي والعلمي وأن تعرف إقبالا منقطع النظير في تلقين العلوم.

### خزانة دار الكتب الناصرية

تشتهر تامكروت بمعهدا الأصيل وخزانتها الذائعة الصيت، التي أنشأها وكونها شراء وتأليفًا، الشيوخ الناصريين الذين تعاقبوا على الزاوية منذ تأسيسها. وللإشارة فإن هذه الخزانة تعد من الخزانات العتيقة بالمغرب والمعروفة عالميا. وتساهم حاليا في السياحة الثقافية بالمنطقة بالإضافة إلى دورها التكويني والتعليمي.

عرفت الخزانة الناصرية في فترة ازدهارها تواجد مجموعة ضخمة من المخطوطات والمؤلفات المتنوعة (ما يفوق 4000 مخطوط)، في مقدمتها: «القرآن الكريم وتفسير القرآن الكريم، وإعراب القرآن، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى في الحديث وطب الأعشاب والتنجيم واللغات والآداب والتاريخ والسيرة النبوية والرياضيات والتصوف والحديث والبلاغة وغيرها من العلوم»<sup>(3)</sup>. ولا مناص من القول أن الخزانة

فنفخ الله به الفريقين، ونور به الجانبين، وصحبه الناس غربا وشرقا... قائما بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله. أنظر: اليوسي، الحسن. فهرسة اليوسي، تحقيق زكرياء الخثيري، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004، ص 80.

(1) - الناصري، محمد بن عبد السلام بن عبد الله. المزاي فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا، مرجع سابق، ص 33.

(2) - نفسه، بتصرف.

(3) - قناة فوائد متنوعة، ربورتاج عن الزاوية الناصرية وعن الخزانة بتامكروت، تم استرجاعه من

<https://www.youtube.com/watch?v=syISjDUhzl0> بتاريخ: 2021/08/28.

الناصرية أدت دورا كبيرا في الحفاظ على الثقافة الإسلامية سواء في الجنوب المغربي أو في المغرب عموما وذلك بفضل شيوخ الزاوية الناصرية الذين اشتهروا بغزارة علمهم وحرصهم على إغناء محتوى هذه الخزانة. ورغم أن هذه الأخيرة عرفت فترات ضياع الكتب والمخطوطات بسبب النزاعات التي وقعت بين أفراد الأسرة الناصرية رغبة في مشيخة الزاوية، إلا أنها لا زالت تحتوي على بعض المخطوطات النفيسة التي يعود تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس الهجري والتي «اقتناها محمد بن ناصر وابنه أحمد من رحلاتهم الحجية التي قاموا بها إلى المشرق ليزودوا بها خزانة الزاوية»<sup>(1)</sup>، وأغلبها مخطوط على جلد الغزل ومرشوم بالذهب الخالص وملون بالزعفران.

تمثل الخزانة الناصرية بحق أعظم خزانة ضمتها زاوية مغربية مع العلم أن معظمها قد نقل إلى الخزانة الملكية بالرباط خلال تولي المكي الناصري وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ولم يبق فيها حاليا سوى أربعة آلاف مخطوط، ولا تزال تستقبل الطلبة من مختلف المدن.

### الزاوية الناصرية والحياد السياسي

ظهرت الزاوية الناصرية أواخر عهد الدولة السعدية في عهد السلطان أحمد منصور الذهبي، المتوفي سنة 1603 ميلادية، مما جعلها وسط أحداث سياسية متغيرة في المغرب. يشير محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري في كتابه (المزاييا فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا) إلى أن موقف الزاوية الناصرية إزاء أحداث الخلافة السلطانية للدولة العلوية كان محايداً. ذلك أن الزاوية لم تسير المخزن، ولم تشارك في رفع صوتها مؤيدة سلطاناً دون آخر ولم ترفع راية الجهاد ضد المحتلين لثغور البلاد، وقد وجد أبو علي الحسن اليوسي، تلميذ الزاوية حسب الكتاب، مبرراً لهذا الموقف وهو أن الزاوية امتنعت عن مقاومة المحتل كي لا تتهم أنها تقاتل طمعا في السلطة، فتتابع كما توبعت الزوايا الأخرى التي قاومت من أجل الدفاع عن البلاد ضد المسيحيين «ولقد حاول كبير تلامذته وأشهرهم على الإطلاق، الشيخ أبو علي اليوسي تقديم تفسير لهذا الموقف، أوجزه في أطروحة إبعاد الشبهة عنه حتى لا يتهم من قبل سلاطين زمانه أنه يسعى إلى السلطة، خصوصا وأن سكان سوس ودرعة كانوا مستعدين كلهم لاقتفاء ركبته، لوركب هذا الركب»<sup>(2)</sup>.

(1) - قناة فوائد متنوعة، الخزانة الناصرية تامكروت، تم استرجاعه من <https://www.youtube.com/watch?v=yGAZacC-uOM> بتاريخ: 2021/08/28. أنظر كذلك: عمالك، أحمد. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي 1642-1907م، مرجع سابق، ص 331/2.

(2) - الناصري، أحمد بن خالد. طلعة المشتري في النسب الجعفري، مرجع سابق، 169/1.

لقد حاولت الزاوية منذ تأسيسها أن تظل محايدة، وتهتم فقط بالجانب الديني والاجتماعي والاقتصادي رغم أنها لم تسلم في بداية ظهورها من بعض المناوشات مع السلطة الحاكمة. يعلق ضريف على هذا الحياد بقوله: «على المستوى السياسي، كان بن ناصر يمتنع عن الدخول في صراع مفتوح مع السلاطين، محتفظا إزاءهم باستقلال تام، ولو أنه ظل يحتفظ نتيجة صراعاته الأولى مع ممثلي السلطة المركزية بنوع من الحذر تجاه المخزن»<sup>(1)</sup>. إن المناوشات التي كانت تقع بين الزاوية الناصرية والسلطة كانت بسبب امتناع محمد بن ناصر الدعاء للسلاطين على المنبر في خطبة الجمعة كما أن بعض الروايات التاريخية<sup>(2)</sup> تشير بأن الشيخ كان يوجه رسائل نصح للسلاطين داعيا إياهم إلى نشر العدل في الأرض، وإحياء السنة، ومحاربة البدع، وعدم الاغترار بالنسب الشريف واستشارة العلماء. بالمقابل كان يدعو قومه إلى طاعة السلطان والامتثال لقوله «وإذا قرب منكم السلطان، فامشوا إليه، وبينوا حالكم، وأنكم على طاعته»<sup>(3)</sup>.

يبدو جلياً أن الزاوية الناصرية كانت زاوية متميزة بين زوايا المغرب، فقد اشتهرت ببند خطها الشيخ محمد بن ناصر وتقوم على «توصية الملوك وتوجيهه لهم رسائل لتذكيرهم بإحياء السنة وتطبيق كتاب الله والسير على نهج السلف الصالح، والأخذ بيد الأمة ومنع ولاتهم من تطاول أيديهم على الرعية بالجور والطغيان، ووجوب العمل بمشورة العلماء الأتقياء، وعدم الاغترار بالنسب الشريف، لكن أبرز بند كانت تعتمد الزاوية هو اعتبار الدعاء للملوك على المنابر بدعة»<sup>(4)</sup>، وهي النقطة التي وضعت الزاوية، في موضع مساءلة سلطانية؛ لأن ملك البلاد يعتبر هذا خروج عن البيعة التي أقرها الشرع وركيزة من ركائز الاستقرار.

ظلت الزاوية الناصرية على هذا الحال حتى في عهد السلاطين الذين خلفوا المولى الرشيد. وأدركت السلطة العلوية الحاكمة لاحقا بأن عدم الدعاء للسلاطين ليس إلا موقف لها نابع من منهج الزاوية التي تعتبر بأن الدعاء للملوك على المنابر بدعة وليس غير ذلك. لكن سيتغير هذا الموقف فيما بعد، وستغدو الدعوة للملوك على المنابر أمر محمودا من طرف شيوخ الزاوية الناصرية كما هو الحال في وقتنا الحالي.

(1)- ضريف، محمد. مؤسسة الزوايا بالمغرب، مرجع سابق، ص 54.

(2)- أنظر: الخليلي، عبد العزيز. زاوية تمجروت (1642-1914)، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص 131.

(3)- نفسه، ص 132.

(4)- الناصري، محمد بن عبد السلام بن عبد الله. المزاي فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا، مرجع سابق، ص 38، بتصرف.



## خاتمة:

يتضح من خلال الأدوار السالفة الذكر التي أدتها الزاوية الناصرية على مختلف المستويات الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، أنها قد شكلت بما لا يدع مجالا للشك إحدى أهم الزوايا بالمغرب خلال القرنين الميلاديين (17 و18). وذلك بفضل تبنيها لهماوم المجتمع المغربي، وقد ساعدها على ذلك مكانة شيوخها العلمية وشهرتهم الدينية الذين ساهموا في جميع مناحي الحياة. على المستوى العلمي، تم الحفاظ على العلوم بتلقيها للطلبة وحمايتها من الضياع والتلاشي، وكذا إغناء الخزانة الناصرية على وجه الخصوص، والخزانة المغربية عموما بمخطوطات ومؤلفات في جميع التخصصات، شراء واستنساخا وتأليفا. مما جعل من زاويتهم مركزا علميا رائدا في فترة شهدت فيها الحياة العلمية والفكرية بالمغرب ترجعا واضحا. كما أن الخزانة الناصرية بتمامكروت لا تزال إلى يومنا هذا قبلة للطلبة والباحثين من جميع أنحاء العالم.

أما من الناحية الدينية، فكانت الزاوية الناصرية من الدعاة إلى نشر تعاليم الدين الصحيح وتجنب البدع والمنكرات، ومركزا للتربية الروحية ملأ فراغا كبيرا في زمن سادت فيه الشعوذة والاحتيال بادعاء الصلاح وادعاء النسب الشريف من أجل الحصول على بعض الامتيازات. أما من الناحية الاقتصادية، فقد ساهمت الزاوية في إنعاش الحركة الاقتصادية من خلال توفير الأمن للقوافل التجارية والمسافرين، ومن الناحية الاجتماعية، فقد تمكنت من إطعام الطعام لعدد لا يحصى من الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل، كما قامت بفض النزاعات سواء بين الأفراد أو بين القبائل أو حتى بين أبناء الملوك. أما سياسيا، فكانت علاقة شيوخ الزاوية الناصرية مع المخزن في أول الأمر يشوبها نوع من الحذر والحياد ثم في مرحلة أخرى ساد بينهما التقارب والتفاهم، لتنتهي في الأخير مع الشيوخ المتأخرين إلى التبعية التامة للمخزن خصوصا بعد دخول الناصريين في نزاع حول تولي مشيخة الزاوية الأمر الذي سمح للمخزن للتدخل في الشؤون الداخلية للزاوية من أجل تعيين من يتزعمها. وفي هذا الصدد يقول الخمليشي: «... تم إقناع شيخ الزاوية ومن يتولى أمورها مستقبلا بأن تعيينهم بشكل رسمي يبقى رهينا بتدخل السلطان، وبالتالي عليهم أن يلتمسوا، باستمرار، ظهيرا يزكي تنصيبهم لدرء منافسة أي منافس»<sup>(1)</sup>.

في الحقيقة، لم تستمر الزاوية الناصرية على نفس النهج الذي خطه الشيخ الأول محمد بن ناصر، وتوالت عليها النكبات، وبدأت في فقد تلك الرمزية التي تضمن لها الاستمرار بل وأصبحت عرضة لهجمات القبائل بعد أن كانت وسيطا في حل النزاعات سواء بين الأفراد أو بين القبائل وطرفا في تطهيرها، وكانت

(1). الخمليشي، عبد العزيز. زاوية تمجروت (1642-1914)، مرجع سابق، ص 147، بتصرف.

تمتلك سلطة تضاهي السلطة المركزية، وذلك منذ أن دخلت في صراعات داخلية حول المشيخة مما دفع بالمخزن إلى التدخل في شؤونها بغية حل الخلافات الواقعة بين أفراد الأسرة الناصرية، الأمر الذي دفع بأرباب الزوايا بقبول مقترح السلطان المتمثل في تعيين شيوخ الزاوية بمقتضى ظهير شريف، كما رغبت السلطة في فرض ضرائب على أحباس الزاوية مما شكل البدايات الأولى لتراجع مكانة الزاوية الناصرية بعد أن كانت تتبوأ الصدارة في تزعم المشهد الديني.

على العموم، استطاعت الزاوية الناصرية في فترة حالكة من تاريخ المغرب أن تنشر العلم والمعرفة وتستقطب العلماء من مختلف البقاع، وأن توفر الأمن والأمان، وأن تنظم الحياة الاقتصادية، وذلك بفضل مختلف الأدوار والوظائف التي نجحت الزاوية في أدائها. وبالتالي المساهمة في الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي خاصة وأنها لم تكن لها أطماع في السلطة عكس بعض الزوايا التي تصارعت واقتتلت من أجل الظفر بالحكم أو بغية السيطرة على مناطق معينة.